

الملتقى الوطني الموسوم بـ:

ملاح الخطاب الصوفي في الشعر الجزائري المعاصر

من تنظيم: فرقة البحث: ملاح الخطاب الصوفي الجزائري الحديث – مخبر تعليمية اللغات وتحليل

الخطاب – كلية الآداب والفنون.

في: 15 نوفمبر 2023

المنعقد بـ: جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف

عنوان المداخلة:

البعد الروحي للتصوف الإسلامي

"قراءة تحليلية في التعاريف الاصطلاحية والمفاهيمية للتصوف"

إعداد:

د. أمينة تجاني

أستاذة بقسم اللغة والأدب العربي

كلية الآداب واللغات

جامعة الوادي

الملخص:

يعد التصوف الإسلامي من العلوم الحادثة في الملة حسب رأي ابن خلدون، وبالرغم من وجود علوم أخرى محدثة أيضا كعلم الفقه، وعلم التوحيد وغيرها، إلا أنه الوحيد الذي عانى من الإقصاء والتهميش والرفض منذ ظهوره إلى اليوم، الأمر الذي يدفعنا إلى البحث عن سبب ذلك.

وهذا ما تسعى إليه هذه الدراسة؛ تقديم التصوف بشكل يختلف عن الصورة النمطية السيئة عنه، وإعادة قراءته انطلاقا من مصادره الأصلية، وتحليل أقوال أربابه بعيدا عن القراءات الخارجية، للكشف عن منبعه وأصل تسميته، وحقيقة مضامينه. وذلك للمساهمة في إبرازه كعلم من علوم الدين مصدره؛ الكتاب والسنة، وتبيان دوره الفعال والإيجابي في التربية الروحية، ومدى إمكانية استثمار مخرجاته التربوية في هذا العصر الموسوم بطغيان المادة وضعف الوازع الديني.

مقدمة:

التصوّف عقيدة وإيمان، علم وعمل، أدب ومحبة، عبادة ومجاهدة، تطبيق عملي وممارسة حقيقية للشريعة الإسلامية في الحياة اليومية، منهج للحياة الرّبّانية التي أرادها الله تعالى لعباده؛ يوازن بين متطلبات الجسم والروح على حدّ سواء، بل يتجاوز المادة إلى الروح والدنيا إلى الآخرة، ويرتفع بالإنسان المخلوق إلى معرفة خالقه وعبادته حقّ العبوديّة، ومحبّته وإيثاره عن كل من سواه، وذلك عن طريق تزكية النفس ومُجاهدتها في الله حتى يهديها سبيله وتنتصر على شهواتها الظاهرة والباطنة، لقوله تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ (العنكبوت، 69).

إن التصوف موضوع أسال حبرا كثيرا منذ ظهوره إلى اليوم، ومثّل مادة دسمة شكلت مواضيع خصبة للدراسة؛ حيث يتداخل زخم من التماثلات وأوجه الشبه، أغرت المقارنين والدارسين على اختلاف نحلهم ومذاهبهم لدراسته وتفسيره، فتفسير التّراث هو في الواقع فكّ للتشفير أو ما نصطلح عليه تأويلا للرؤى المذهبية، الاجتماعية، السياسية والثقافية.

ونظرا لما تميز به التصوف من زخم معرفي وغموض مفاهيمي فتح الباب على مصراعيه للتأويل والقراءة وإعادة الإنتاج من جديد أمام الباحثين والدارسين، الأمر الذي جعله في دائرة الاتهام والشك، وأبعد عن الساحة العلمية والثقافية ردحا من الزمن بالرغم مما قدمه في المجال الاجتماعي والإنساني والتربوي والروحي من إبداع، ولا سيما الجانب اللغوي الذي أحدث ثورة في المضامين والأشكال فجّرت اللغة المعهودة فالتقت حضارة اللفظ مع حضارة المعنى وانصهرت الحضارتان في بوتقة واحدة مثلت ذروة شامخة في البيان العربي.

من هذا المنطلق كان اهتمامي بإعادة قراءة التصوف؛ مصطلحا ومفهوما، وذلك من خلال استقراء تعريفات أصحابه وبيان مضامينها ودلالاتها، واستنطاقها وتحليلها سعيا للوصول إلى رؤية موضوعية تؤكد أصالته واستمداده من الكتاب والسنة، وتبين مدى صحة تسميته، وحقيقة مفاهيمه ومضامينه.

وبناء على ما تقدم نطرح الإشكالية الرئيسة الآتية:

ما هي أهم القراءات للتعريف الاصطلاحية والمفاهيمية للتصوف؟

إجراءات الدراسة:

جاءت إجراءات الدراسة وفق المحاور الآتية:

المحور الأول: حقيقة الإنسان وأبعاده الثلاثية في الفكر الصوف.

المحور الثاني: مكانة التصوف في الإسلام

المحور الثالث: قراءة في مصطلح التصوف

المحور الرابع: قراءة في مفهوم التصوف

أولا: حقيقة الإنسان في الفكر الصوفي

1- الإنسان عند أئمة المسلمين:

خلق الله الإنسان وأسكنه أرضه لحكمة إلهية، تتمثل في؛ الخلافة والعمارة والعبادة، فأما الأولى فلقوله تعالى: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ (البقرة، 30). وأما الثانية فلقوله: ﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾ (هود، 11). وأما الثالثة فلقوله: ﴿وما خلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون﴾ (الذاريات، 56).

فهو أعظم المخلوقات بالنشأة والخلافة، "ومكانه في القرآن الكريم هو أشرف مكان له في ميزان العقيدة، وفي ميزان الفكر وفي ميزان الخليفة الذي توزن به طبائع الكائن بين عامّة الكائنات"¹، فهو "الخليفة المسؤول بين جميع ما خلق الله، يدين بعقله فيما سمع ورأى، ويدين بوجوده فيما طواه الغيب"²، وهو الكائن المكلف³ المستعدّ للسمو والرقي أو الانحدار والتردي بما جبل عليه من طبائع الخير والشرّ، ولهذا نجد "ذكره في القرآن بغاية الحمد وغاية الذمّ في الآيات المتعدّدة، وفي الآية الواحدة، فلا يعني ذلك أنّه يحمّد ويذمّ في آن واحد، وإنّما معناه أنّه أهل للكمال والنقص بما فطر عليه من استعداد لكلّ منهما؛ فهو أهل للخير والشرّ؛ لأنّه أهل للتكاليف"⁴.

¹ عباس محمود العقاد، الإنسان في القرآن، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، دط، دت، ص 18.

² المرجع نفسه، ص 10.

³ المرجع نفسه، ص 19.

⁴ المرجع السابق، ص 13.

ومناطق التكليف حسب العقاد قائم بنصوص القرآن على أركان ثلاثة: تبليغ وعلم وعمل¹؛ أمّا التبليغ فلقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ﴾ (يونس، 07). وأمّا العلم فلقوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق، 01)، فأول فاتح في خلق الإنسان كان فاتحة العلم الذي تعلّمه آدم وامتاز به عن سائر المخلوقات. وأمّا العمل فهو مشروط في القرآن بالتكليف الذي تسعه طاقة المكلف، وبالسعي الذي يسعاه لربّه ولنفسه، لقوله تعالى: ﴿لَا يَكْفُرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَسْعَهَا﴾ (البقرة، 286).

وقد قدّم علماء الإسلام تعريفات للإنسان، منهم: ابن سينا (1037-980م) الذي يعرفه في كتابه (النّجاة)، بقوله: "ليس الإنسان إنساناً بأنّه حيوان مائت، أو أيّ شيء آخر، بل إنّه مع حيوانيّته ناطق"² ويضيف في كتابه (الشّفاء): "الإنسان جوهر له امتداد في أبعاد مادّيّة تفرض عليه الطّول والعرض والعمق، ومن جهة أخرى يمتلك نفساً بها يتغذّى ويحسّ ويتحرّك ومع ذلك يمتلك عقلاً به يفهم الأشياء ويتعلّم الصّناعات... وعندما يتحدّى كلّ ما سبق نحصل على ذات متّحدة هي الإنسان"³.

أمّا الفارابي (874-950م) فيعرفه بقوله: "إنّ الإنسان منقسم إلى سرّ وعلن، أمّا علنه فهو الجسم المحسوس بأعضائه وأمشاجه، وقد وقف الحسّ على ظاهره، ودلّ تشريحه على باطنه، أمّا سرّه فقوى روحه"⁴.

من التعريفين السابقين نجد اختلافاً في مفهوم الإنسان عند ابن سينا والفارابي؛ إذ يرى الأول أن الإنسان مكوّن من جسد ونفس وعقل، أمّا الثاني فيرى بأنّه قسمين فقط؛ جسد وروح.

2- حقيقة الإنسان عند الغرب:

إنّ نظرة العلماء والباحثين إلى حقيقة الإنسان عبر تاريخ الإنسانيّة الطّويل لم تخرج عن اعتباره ثنائي التّكوين؛ جسد وروح أو جسد وعقل، مع التّركيز على أحد الجانبين على حساب الآخر، أو محاولة دراسته على أساس عنصرين منفصلين لكلّ عنصر ميزاته التي تخصّه.

فنجد مثلاً من الدّراسات المبنية على الثنائيّة في التّكوين مع التّركيز على الجانب الرّوحي أكثر من الجانب المادّي، الفلسفة الإشراقية، "والنّظرة الأفلاطونية التي تنظر إلى الرّوح على أنّه جوهر مجرد عن المادّة، أزلي، طاهر، وأنّ الجسم سجن للرّوح، معذب له، وترى أنّه يجب أن يكون هنالك عمليّة تطهير وإصفاء للرّوح"⁵. فهي تهتمّ بالرّوح على حساب الجسم.

¹ المرجع نفسه، ص 14.

² نقل عن: ناظم مولاي، مفهوم الإنسان الكامل في الفكر الصوفي، مجلة العلوم الإنسانيّة والاجتماعية، ع7، جانفي 2012، ص 133.

³ المرجع نفسه، ص 133، 134.

⁴ المرجع نفسه، ص 134.

⁵ سهير فضل الله أبو وافية، الفلسفة الإسلامية، ص 69.

كما نجد محاولة أخرى لدراسته على أساس مادّي بحت، وأنّه لا يتعدّى أن يكون تفاعلا كيميائيًا وكهربيًا للجسد، "فالنظرة المادّيّة للإنسان ترى أنّه لا يعدو أن يكون إلا جسما مادّيًا، وأنّ الحالات النّفسيّة والعمليّات العقليّة ما هي إلا تفاعلات كيميائيّة كهربيّة داخل الجسم، وأنّه ينعدم بموته، وليس هنالك روح باقية بعد الموت يرجع إليها ما يتّصف به الإنسان من قيم وفضائل ومبادئ"¹.

كما نجد "الإنسان الشّمولي" عند (كارل ماركس)، والذي يدلّ على العلاقة المتبادلة بين الفرد والمجتمع من جهة، وصورة مثاليّة معيّنة من جهة ثانية²، وكذلك الفرنسي (مارسيل موس) الذي عرّفه بالواقعة الاجتماعيّة الشّموليّة أو الكليّة المتحقّقة باختيار فرد شمولي³. بالإضافة إلى نظريّة التّطوّر عند (داروين). إنّ النظرة الأفلاطونيّة والمادّيّة والماركسيّة والدّاروينيّة فيما قصور، لأنّ كلًّا منها اعتنت بجانب دون الآخر، واهتمّت بمعرفة خصائص التّكوين لكلّ من العنصرين المنفصلين ككيانين.

3- حقيقة الإنسان عند الصوفية:

إنّ رؤية الفكر الصوّفي للإنسان مغايرة لكل من سبقها؛ إذ ترى أنّ الإنسان ثلاثي التّكوين وليس ثنائيًا؛ عقل وجسد وروح، لأنّ العمليّات العقليّة وحالات البدن الفسيولوجيّة والحالات النّفسيّة الوجدانيّة مختلفة في طبيعتها وخصائصها ولكنّها تجتمع في كينونة واحدة؛ ألا وهي ذات الإنسان. فللجسد مطالب وللعقل مطالب وللروح مطالب، ولكن ليست مطالب هذا منفصلة عن ذلك، وإنّما يكون التّوازن بينها دون إفراط أو تفريط في أيّ منهم بشرط تلازمها في سمو الإنسان نحو الكمال، وهذا ما ركّز عليه الصوفية.

فالإنسان عندهم هو قطب الكون ومداره، وهو أعظم مخلوق وأكمله في الوجود، وما الوجود كلّهُ إلا جزء منه، وفي ذلك يقول الشيخ أحمد التجاني: "... وإذا تأمّلت هذا الأمر عرفت أنّ الوجود كلّهُ من أوّله إلى آخره، من الأزل إلى الأبد عموما وخصوصا هو جزء من الإنسان، لا الإنسان كلّهُ لأنّ الإنسان حمل جميع الصّفات والأسماء، وتجلّى فيه الحقّ بها"⁴.

وهذه الصّفة العظمى التي تميّز بها الإنسان عن المخلوقات ترجع إلى كونه الوحيد الذي تجلّت فيه جميع الصّفات والأسماء الإلهيّة، لكون روحه من نفخ الله، لقوله تعالى: ﴿ونفخت فيه من روحي﴾ (الحجر، 29). ولهذا فالإنسان عامّة "... جامع لجميع الأسماء والصّفات، خلق الله روحه من صفاء صفوة النّور الإلهي، وحلّاه بصفاته العظيمة من العظمة والعزّ والكبرياء والسّطوة والقهر، فظهرت بهذه العظمة في الوجود،

¹ محمود زيدان، في النفس والجسد، ص 60، 63.

² ينظر: ناجم مولاي، الإنسان الكامل في الفكر الصوفي، ص 134.

³ ينظر: المرجع نفسه، ص 134.

⁴ الحاج علي حرازم، جواهر المعاني، ج2، ص 742.

وظهوره بها مذموما شرعا، إلا من قهرته التقوى منهم. ثم مع هذا التحلي الذي حلاه صب عليه مواقع من أحكامه القهرية ليعرف قدره ورتبته من الأمراض والمصائب والفقر والموت وما يخرج منه من الفضلات الخبيثة. ولو أنه أراحه من هذه الأمور على الدوام مع أمنه من الموت لصرح بالألوهية صراحة من غير إخفاء، وقد تجلّى في الإنسان بجميع صفاته وأسمائه قبولاً أو وقوعاً؛ القبول منه لأرباب الحجاب، والوقوع للعارفين الذين وصلوا مرتبة الكشف، حيث كوشفوا بصفاء المعرفة واليقين¹.

فالإنسان عند الصوفية مكوّن من جسد وعقل وروح، وهو صنفين؛ محجوب وعارف بالله، ميّت وحيّ، وكلاهما تجلّت فيه جميع صفات الله وأسمائه، ولكن الأول لم يدركها، لأنه غافل، أمّا الثاني عرفها وتحقّقها واقعا مجسّدا. ومع تميّز الإنسان العارف عن غيره إلا أنّه ليس نموذجا معطى، بل يصل إلى هذه المرتبة باتباع النموذج الأعظم؛ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك بمجاهدة النفس وتهذيبها والارتقاء بها في مدارج الإحسان.

ثانيا: التصوف ومكانته في الإسلام

لم يخلق الله تعالى الإنسان عبثا ولهوا، إنما خلقة للعبادة، لقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات، 56)، وكما أن الإنسان جسد وروح وعقل؛ فكل منها مطالب بالعبادة، وعليه جاءت هذه الأخيرة؛ إسلام وإيمان وإحسان. وهي تمثل مقامات الدين المذكورة في حديث جبريل عليه السلام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أتاه يسأله عن الدين في هيئة شخص، والذي رواه عمر-رضي الله تعالى عنه- بقوله:

"بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيّه على فخذيّه، وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا. قال: صدقت فعجبنا له يسأله ويصدّقه، قال: فأخبرني عن الإيمان. قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان. قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. ثم انطلق. فلبث مليّا، ثم قال: يا عمر أتدري من السائل؟ قلت الله ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم"².

¹ المرجع السابق، ص 742.

² شرح الأربعين النووية، معي الدين بن شرف النووي، اعتنى بها محمود بن الجميل، دار الإمام مالك، الجزائر، 2، 2001، ص 31

فالدين إذا؛ إسلام وإيمان وإحسان، فالإسلام عبادة الجسد والإيمان عبادة العقل والإحسان عبادة القلب والروح. ومن هنا فإن التشريعات والأحكام التي جاء بها القرآن الكريم وسنة النبي الكريم ﷺ تنقسم إلى :
القسم الأول: ما يتعلق بالعبادات والمعاملات كما في قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (البقرة، 110). وهو يتعلق بالجوارح أو الجسد ويسمى هذا العلم: علم الفقه.

القسم الثاني: ما يتعلق بالعقيدة مثل قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ (محمد، 19). وهو علم يتعلق بالعقل الذي يتوصل إلى الإيمان بالله عن طريق التأمل والتفكير والتصديق بالأمور الغيبية، ويسمى هذا النوع من العلوم: بعلم التوحيد.

القسم الثالث: هو ما يتعلق بنفس المكلف من حيث تزكيتها من الحقد والحسد والكبر وغيرها من أمراض القلوب التي أمرنا الله أن نحاربها، وذلك بتزكية النفس والترقي بها من مقام إلى مقام، يقول تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس، 9، 10). ويقول أيضا: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ (النساء، 54). وهو علم يتعلق بالقلب والروح، فسمي هذا النوع من العلم: بعلم التصوف.

وعلى هذا فإن التصوف ليس حادثا في الدين بل التسمية هي الجديدة والمحدثة، وفي ذلك يقول ابن خلدون: "هذا العلم من علوم الشريعة الحادثة في الملة، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى... وكان ذلك عامًا في الصحابة والسلف، فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة"¹.

فَعَلِمُ الإِحْسَانَ (التصوف) كان عند كل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بفضل صحبتهم له، لأنه صلى الله عليه وسلم كان يدعوهم إلى طريق الله ويوجه سلوكهم، ويغرس في نفوسهم الأخلاق الحميدة، وينهاهم عن اتباع النفس والهوى، وترك الأخلاق المذمومة، وبذلك كان الرعيل الأول خير قرون المسلمين، لقوله صلى الله عليه وسلم: "خير القرون قرني ثم الذي يليه، ثم الذي يليه...".

أي الصحابة ثم التابعين ثم تابعي التابعين، وكلما ابتعدنا أكثر عن زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم تناقص عدد السائرين على طريقه ونهجه وسنته، ولما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية واختلط المسلمون بغيرهم من الروم والفرس وانهبوا بحضارتهم فشا الإقبال على الدنيا، وضعف توجه الخلق إلى الله، إلا أن

¹ المقدمة، ابن خلدون، ص 504.

بلاد المسلمين لم تغل من أهل الله وخاصته الذين أخلصوا له وتوجهوا إليه وحده، وهم الصالحون والعارفون بالله.

ومن هنا يمكن القول إن التصوّف هو أحد علوم الدين، موضوعه "النفوس والقلوب والأرواح لأنه يبحث عن تصفيتها وتهذيبها"¹. بمعنى تربيته وتعديل سلوكها حتى تستقيم، لقوله تعالى: ﴿فاستقم كما أمرت﴾ (هود، 112).

أمّا استمداده" فهو مستمد من الكتاب والسنة وإلهامات الصالحين، وفتوحات العارفين"².
أمّا حكمه فيقول الغزالي: "إنه فرض عين إذ لا يخلو أحد من عيب أو مرض إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام"³.

وأما نسبته من العلوم "فهو كليّ لها وشرطي فيها إذ لا علم ولا عمل إلا بصدق التوجّه إلى الله تعالى، فالإخلاص شرط في الجميع"⁴. قال السيوطي: "نسبة التصوف من العلوم كعلم البيان مع النحو"⁵. وقال الشيخ زروق: "نسبة التصوّف من العلوم نسبة الروح من الجسد لأنه مقام الإحسان الذي فسّره رسول الله ﷺ لجبريل: (أن تعبد الله كأنك تراه) ... كما دار الفقه على مقام الإسلام، والأصول على مقام الإيمان، فالتصوف أحد أجزاء الدّين"⁶.

فكل هاته العلوم حادثة في الملة ولم تعرف في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنه كان هو المشرّع والمصدر والأساس في كل علوم الدين، ولم تجتمع في أحد من بعده، إذ اختصت كل فرقة بعلم واحد منها، وبرزت فيه، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا: لِمَ اعتبر التصوف حادثاً في الملة فقط دون غيره من علوم الدّين مع أنها كلها ظهرت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ولمّ قوبل بالرفض دون غيره؟
قد نعزو ذلك إلى إشكالية المصطلح "التصوف" والغموض الذي يكتنفه، فمن أين جاء مصطلح التصوف؟

ثالثاً: قراءة في مصطلح التصوف

1- مصطلح التصوف عند الباحثين:

تعددت الأقوال في أصل لفظة التصوّف واشتقاقاتها:

¹ رسالة البيان والتبيين في أن الصوفية مذهبا السنة والقرآن، سيدي المختار بن أحمد فال العلوي التجاني، تج: مرسي محمد علي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2002، ص32

² المرجع نفسه، ص33.

³ المرجع نفسه، ص33.

⁴ المرجع نفسه، ص33.

⁵ المرجع نفسه، ص34.

⁶ المرجع نفسه، ص34.

أ- الرأي الأول:

ويرى أصحابه أن التصوّف نسبة إلى الصّفاء لأن الصوفي هو الذي صفت سيرته ممّا يشوبها، يقول الكلاباذي: "إنما سميت الصوفيّة صوفية لصفاء أسرارها ونقاء أثارها، وقال بشر بن الحارث: الصوفي من صفا قلبه لله"¹. وجاء في اللمع للسراج الطوسي أن الصوفي "مأخوذ من الصفاء وهو القيام لله عزّ وجلّ في كل وقت بشرط الوفاء"². قال بعض الصوفيّة:

تَخَالَفَ النَّاسُ فِي الصُّوفِيِّ وَاخْتَلَفُوا وَكُلُّهُمْ قَالَ قَوْلًا غَيْرَ مَعْرُوفٍ
وَلَسْتُ أَمْنَحُ هَذَا الْإِسْمَ غَيْرَ فَيٍّ صَافِي فَصُوفِي حَتَّى سُمِّيَ الصُّوفِي³

ولكن القشيري(468هـ) في رسالته يرى أنّ "اشتقاق الصوفي من الصفاء، بعيد في مقتضى اللغة فأصل الاشتقاق من الصفاء هو صافي وليس صوفي"⁴.

ب- الرأي الثاني:

يرى أصحابه أن التصوف مشتق من الصّف لأن الصوفية بتوجههم إلى الله سبحانه وتعالى بكلّيتهم، وقطع العلائق من الخلائق، استحقوا أن يكونوا في الصف الأول من صفوف المؤمنين، ولكن القشيري يرى أن "المعنى صحيح ولكن اللغة لا تقتضي هذه النسبة إلى الصف لأن أصل الاشتقاق صَفِيّ وليس صُوفي"⁵.

ج- الرأي الثالث:

يرى أصحابه أن التصوّف ينسب إلى أهل الصّفّة للتشابه الكبير بينهما فكلاهما هجر الدنيا وتفرغ لعبادة الله عز وجل، "فالصوفيّة قوم قد تركوا الدنيا فخرجوا عن الأوطان وهجروا الأخدان وساحوا في البلاد وأجاعوا الأكباد وأعروا الأجساد، ولم يأخذوا من الدنيا إلا ما لا يجوز تركه، من ستر عورة وسدّ جوعه"⁶. ولكن هذا الاشتقاق غير صحيح فالأصل صُفِيّ وليس صُوفيّ.

د- الرأي الرابع:

يرى أصحابه أن التصوّف مشتق من الكلمة الإغريقية الأصل (صوفيا) والتي تعني (الحكمة) "وأما الصوفيّة فهم (الحكماء) وإلى هذا المعنى يذهب البيروني حيث يرى أن الصوفيّة مأخوذة من الكلمة اليونانية (فيلا صوفيا) أي (محبّ الحكمة) ... ويرجع بطلان هذا الرأي الذي يربط التصوّف بالكلمة الإغريقية السالفة

¹ التعرف لمذهب أهل التصوف، الكلاباذي، دار الكتاب العلميّة، بيروت، دط، 2001، ص21.

² اللمع، أبو نصر السراج الطوسي، تح: عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة، مصر، دط، 1960، ص46.

³ اللطائف الإلهية في شرح مختارات من الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري، عاصم إبراهيم الكيالي الحسيني الشاذلي الدرقاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003، ص21.

⁴ الرسالة القشيرية، القشيري، تح: خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 2005، ص312.

⁵ المرجع نفسه، ص312.

⁶ التعرف لمذهب أهل التصوف، الكلاباذي، ص12.

الذكر، لكون كلمة (صوفيا) تعني الحكمة في مجال الطب، وليست بمعنى الحكمة الروحية، ولذلك فلا توجد علاقة بين الكلمتين"¹.

هـ- الرأي الخامس:

يرى أصحابه أن التصوّف مشتق من الصّوف، أي أنه كلمة تصوّف مصدر للفعل تصوّف للدلالة على لبس الصوف وهذا الاشتقاق هو الأقرب ودليل ذلك من النّاحية اللغوية صحة ردّ (صوفي) إلى (صوف). وقد أكد زكي مبارك في كتابه (التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق) "أن نسبة الصوفي إلى الصوف هي أصح الفروض، ويسوق لهذا الغرض شواهد كثيرة جدا، منها ما ذكره الياضي أن لباس الصوف كان غالبا على المتقدمين من سلف الصوفية لأنه أقرب إلى التواضع والزهد، ولكونه لباس الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- كما أنه يدل على الذل وسوء الحال"².

إن أشهر أنماط الاشتقاق اللغوي لمصطلح التصوّف من الصوف لكونه يحمل بين طيّات معانيه؛ معنى الفقر والخشونة والذلّ والمسكنة... كما أنه ارتبط بالإيمان لقول النبي ﷺ: "عليكم بلباس الصّوف تجدون خلاوة الإيمان في قلوبكم، وعليكم بلباس الصوف تجدون قلة الأكل، وعليكم بلباس الصوف تُعرفون في الآخرة، وإنّ لباس الصّوف يورث في القلب التّفكّر، والتفكير يورث الحكمة، والحكمة تجري في الجوف مجرى الدم، فمن كثر تفكّره قلّ طعمه، وكلّ لسانه، ومن قلّ تفكّره كثر طعمه، وعظم بدنه، وقسى قلبه، والقلب القاسي بعيد من الله، بعيد من الجنة، قريب من النار"³.

وسميّ الصوفيّة بهذا الاسم لأنهم اتبعوا دأب الأنبياء والصحابية وكل من سار على نهجهم واتخذوا لباسهم من الصّوف اقتداء بهم، يقول الكلاباذي في ذلك: "ومن لبسهم وزيّهم سموّ الصّوفية لأنهم لم يلبسوا لحظوظ النَّفس ما لان مسّه وحسن مظهره، ولبسوا لستر العورة، فتجزّوا بالخشن من الشّعروالغليظ من الصوف"⁴. ويمكن القول إن لبس الصّوف كان هو الغالب على المتقدمين من الصوفية فأطلق عليهم الناس اسم (الصوفية) ثم اتسع معنى التسمية فشملت كلّ من تبعهم وسار على نهجهم وطريقهم، ثم انتقلت دلالة التسمية لتدل على علم بأسره هو علم التصوّف. وهذا ما عبر عنه مختار عمر (بتوسيع المعنى)، حيث "يقع عندما من معنى خاص إلى معنى عام"⁵.

¹ الخطاب الصوفي وآليات التأويل "قراءة في الشعر المغربي المعاصر"، عبد الحميد هيمة، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991، ج3، ص63.

² زكي المبارك، التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق،

³ ينظر: الزهد والرفائق، الخطيب البغدادي. وينظر: جمالية التصوف، حسين جمعة، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ع 364، آب2001، ص22.

⁴ التعرف لمذهب أهل التصوف، الكلاباذي، ص12.

⁵ أحمد مختار عمر، علم الدلالة، عالم الكتب، القاهرة، ط5، 1998، ص243.

فالتسمية كانت أول الأمر تطلق على شخص واحد، ثم بمرور الزمن أصبحت تدل على منهج متبع، ثم اتسعت أكثر لتدل على علم له أصوله ومسائله الخاصة.

إذا كانت تسمية "التصوف" قد أطلقت على الصوفية بناء على لباسهم وزيمهم، وانتشر هذا المصطلح بين العلماء والباحثين في دراساتهم، فيا ترى ما مدى صحة هذا المصطلح عند أرباب هذا العلم؟
2- مصطلح التصوف عند أئمتة:

لم يتداول أئمة التصوف هذا المصطلح -حسب وجهة نظري- في كتبهم، وإنما استخدموا مصطلحات أخرى؛ العلم الباطن، الطريق إلى الله، الحكمة، معرفة الله... حيث نجد ابن عربي في مقدمة كتابه (فصوص الحكم) يقول: "الحمد لله منزل الحكم على قلوب الكلم بأحدية الطريق الأمم"¹. فقوله: الحكم على قلوب الكلم إشارة إلى علم القلوب، علم الباطن، الحكمة. وقوله: أحدية الطريق إشارة إلى الطريق إلى الله، الطريق المستقيم. وفي طيات كتابه ذكر الأولياء، ولم يذكر لفظة الصوفية.

كذلك أبو طالب المكي في كتابه (قوت القلوب) يقول: "وبعد فهذا كتاب قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المرید إلى مقام التوحيد"². وعقد فصلا في كتابه سماه: "كتاب العلم وتفضيله وأوصاف العلماء، وذكر فضل علم المعرفة على سائر العلوم، وكشف طريق العلماء من السلف الصالح، وذكر بيان فضل علم الباطن على علم الظاهر، والفرق بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة"³. فهنا ذكر علم الباطن، علم المعرفة، طريق العلماء، علماء الآخرة، ولم يذكر مصطلح التصوف أو الصوفية.

كما نجد ابن عطاء الله السكندري في كتابه (الحكم العطائية) لم يذكر مصطلح التصوف، بل عنوان كتابه يتضمّن مصطلح الحكمة، والذي تكرر بين طياته؛ الحكمة الأولى، الحكمة الثانية...

وغيرهم كثير من أرباب هذا العلم الذين لم يتخذوا مصطلح التصوف تسمية لعلمهم، بل أطلقوا مصطلحات واضحة تدل على طريقهم كعلم الباطن وعلم القلوب وغيرها. وما يؤكد ما ذهبنا إليه قول القشيري في حديثه عن التصوف: "وسئل عمرو بن عثمان المكي عن التصوف... وسئل رويم عن التصوف... وسئل الجنيد عن التصوف..."⁴. بمعنى أن هؤلاء لم يذكروا مصطلح التصوف، ولكن أجابوا حين سئلوا عنه.

¹ ابن عربي، فصوص الحكم، ج1، ص13.

² أبو طالب المكي، قوت القلوب، ص02.

³ المرجع نفسه، ص04.

⁴ القشيري، الرسالة، ص313.

ولهذا نرى من الضروري استخدام مصطلح (علم الباطن) أو (علم القلوب) أو (الطريق إلى الله) كبديل عن مصطلح التصوف الذي لم يستخدمه أربابه للدلالة عليهم، فهو لقب لقبوا به لا غير، وفي ذلك يقول القشيري: "وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق، والأظهر فيه: أنه كاللقب"¹. وهذا ما ذهب إليه أبو الحسن الندوي في كتابه (ربانية لا رهبانية)، حيث يرى أن استبعاد التصوف كمشروع أخلاقي كان بسبب التسمية (تصوف)، لذا صاغ إشكالية مفادها جناية المصطلحات على الحقائق والغايات، لذا يرى أن الأجدران يسمّى التزكية أو الإحسان أو فقه الباطن"².

رابعاً: قراءة في مفهوم التصوف

1- قراءة في التعريفات الاصطلاحية للتصوف:

إذا كان مصطلح التصوّف لقباً أطلق على من لبس الصوف بناء على مظهره، دون الاهتمام بما أطلقه أصحابه من مصطلحات وتداولوه بينهم، فهل سلّم مفهومه من هذا الخلط؟ إنّ التصوّف هو الجمع بين الشريعة والحقيقة؛ بين الإسلام والإيمان، هو مقام الإحسان، فالحقيقة بلا شريعة باطلة، والشريعة بلا حقيقة عاطلة، وفي ذلك يقول الإمام مالك بن أنس -رضي الله عنه-: "من تفقه ولم يتصوّف فقد تفسّق، ومن تصوّف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقق"³.

ويقول الإمام الشافعي في ديوانه:

فقيماً وصوفيّاً فكن غير واحد فإني وحقّ الله إياك أنصحُ

ذلك قاسٍ لم يذق قلبه تقىً وهذا جهول كيف ذو الجهل يصلحُ⁴

فالتصوّف هو العبادة الحقيقية لله تعالى عن طريق تزكية النفس ومُجاهدتها في الله حتى يهديها سبيله وتنتصر على شهواتها الظاهرة والباطنة، يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (العنكبوت، 69).

فالتصوف جهاد للنفس حتى تستقيم لأمر الله تعالى، فلا فلاح لها بغير تزكيتها كما قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا

سَوَّاهَا﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (الشمس، 7-10)

فالتصوّف "هو العلم المتعلق أو الشارح أو الموضوع لكيفية تزكية النفس وتطهيرها من الرذائل وتحليلتها بالفضائل لتتهيأ القلوب لمعرفة الحق تعالى المعرفة الحقيقية"⁵. وقد تعددت تعريفاته وتنوعت حسب زاوية النظر؛ فهناك من عرفه من جانب علمي، وهناك من عرفه من جانب عملي، وهناك من عرفه من جانب

¹ القشيري، الرسالة، ص312.

² أبو الحسن الندوي، ربانية لا رهبانية، دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت، دط، ص08.

³ حاشية العلامة العدوي على شرح الإمام الزرقاني على متن الغربية في الفقه المالكي، العدوي، دار الفكر، بيروت، ج3، ص195.

⁴ الديوان، الشافعي، جمع: حسان محمد قواسمي، دار البصائر، الجزائر، دط، 2010، ص103.

⁵ اللطائف الإلهية، عاصم الكيالي، ص19.

عبادي، وهناك من جمع بينهم، وإن كان كلهم يدورون حول فلك واحد، وفي ذلك يقول الشيخ أحمد زروق: "قد حُدَّ التصوّف ورُسم وفُسر بوجوه تبلغ نحو الألفين، وترجع كلّها لصدق التوجه إلى الله تعالى"¹.

أ- مفهوم التصوف من جانب عملي:

قول الجنيد: "التصوّف أن يميّتك الحق عنك ويحييك به. وقوله أيضا: أن تكون مع الله بلا علاقة"². أي دائم الاتصال بالله مُعْرِضًا عن أي شيء يحول بينك وبينه. وقوله أيضا: "التصوّف هو صفاء المعاملة مع الله تعالى وأصله الصرف عن الدنيا"³. أي عمك كله طاعة لله وتقربا إليه.

قول معروف الكرخي: "التصوّف الأخذ بالحقائق، واليأس مما في أيدي الخلائق. وقال الشبلي: الصوفي منقطع عن الخلق متصل بالحق، كقوله تعالى: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ (طه، 41)"⁴.

قول سهل بن عبد الله التستري: "الصوفي من صفا من الكدر وامتلا من الفكر وانقطع إلى الله من البشر، واستوى عنده الذهب والمدر"⁵.

فهذه التعريفات كلّها تتفق على أن التصوّف هو الإعراض عن الخلق وعن الدنيا وزينتها والانقطاع لله والتوجه إليه وحده، والتفرغ لعبادته والاتصال به على الدوام، وقريبا من هذا المعنى يعرف ابن خلدون التصوّف بأنه "العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة..."⁶.

ب- مفهوم التصوف من جانب علمي:

قول الشيخ محي الدين بن عربي في الباب الرابع والستين ومائة في معرفة مقام التصوّف من كتابه الفتوحات المكيّة: "التخلق بأخلاق الله تعالى هو التصوّف"⁷. بمعنى العلم بهاته الأخلاق أولا والاتصاف بها ثانيا، كالصبر والرّضا والحمد والشكر والعفو والإحسان والكرم والسّخاء والرّحمة والتّوبة وغيرها، وهي الأخلاق التي يحبّها تعالى ويحثّ عليها عباده، لقوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة، 195)، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة، 222). وقوله أيضا: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة، 04)،

¹ المرجع السابق، ص 19.

² المرجع السابق، ص 19.

³ رسالة البيان والتبيين في أنّ الصوفيّة مذهبها السنّة والقرآن، المختار بن أحمد بن فال العلوي، تج: موسى محمد علي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 01، 2002، ص 34.

⁴ اللطائف الإلهية، عاصم الكيالي، ص 20.

⁵ فكر وأخلاق العارف بالله سهل بن عبد الله التستري، إضاءات على حياته الروحية وأقواله الصوفية، فرج حسن البوسيفي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 2008، ص 75.

⁶ المقدمة، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، عبد الرحمان بن خلدون، دار الفكر، بيروت، ط 1، 2004، ص 504.

⁷ اللطائف الإلهية، عاصم إبراهيم الكيالي، ص 20.

وقوله أيضا: ﴿وَاللَّهُ يَحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (آل عمران، 146)، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران، 159). والآيات في هذا الصدد كثيرة ولكن المجال لا يسمح لذكرها كلها.

ج- مفهوم التصوف الجامع:

قول الشيخ أحمد التجاني: "هو امتثال الأمر واجتناب النهي في الظاهر والباطن من حيث يرضى لا من حيث ترضى"¹. وهذا تعريف جامع، مانع، حدّ فيه الشيخ حدود هذا العلم وأسس المنهجية، وهي:

✓ العلم: يمثّل العلم بالشريعة (امتثال الأمر واجتناب النهي).

✓ العمل: اتّباع الشريعة في مقام الإسلام (الظاهر): بمعنى تطهير الجوارح الظاهرة من الذنوب، كالسرقة والقتل والزنا والغيبة... واتّباع لها في مقام الإيمان (الباطن): بمعنى تطهير القلوب من المساوئ والعيوب، كالكبر والعجب والحسد والحقد والنفاق والكره ...

✓ العبادة: التطبيق العملي والتجسيد الفعلي للشريعة ولما جاء به القرآن الكريم في مقام الإحسان (تغليب رضى الله عن رضى النفس)، في محل الشهود والعيان (الحياة اليومية)، مثل: كظم الغيظ، العفو عند المقدرة، الإحسان عند الإساءة، الصبر عند الشدائد، الرضا عند الابتلاء...، فالمريد طريق الله إذا أسيء إليه حلّم، وإذا جهل عليه عفا وغفر، وإذا أذنب تاب واستغفر، وإذا ابتلي صبر، وإذا أُعطي شكر. وهذا ما يفترض أن يكون عليه كل مسلم.

فالتصوّف يجمع بين الشريعة والحقيقة، بمعنى تجسيد الشريعة حقيقة فعلية كما كان حال رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قالت عنه السيدة عائشة -رضي الله عنها-: "كان خلقه القرآن".

2- التصوّف ومشروع صناعة الإنسان:

المقصود بالصناعة هنا: "البناء، بنى الرجل اصطنعه، يقول الشاعر:

يبني الرجال وغيره يبني القرى شتان بين قرى ورجال²

ويقول تعالى مخاطبا نبيه موسى -عليه السلام-: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ (طه، 41)، ﴿وَلْتَصْنَعْ عَلَى عَيْنِي﴾ (طه، 39). فالإنسان كيان ووجود قابل لأن يصطنع ويُنَبِّئَ جزءا جزءا، وليس البناء والنمو للجسد فحسب، بل حتى العقل والقلب قابلين للصناعة والسّمون إن هو تعهدهما بالرعاية شأنهما شأن الجسد، سواء بسواء، لأنّ محور الكون وأساس عملية البناء في الوجود بأكمله هو الإنسان.

¹ علي حازم بن العربي براهه المغربي، جواهر المعاني وبلوغ الأمان في فيض سيدي أبي العباس التجاني، تح: محمد الراضي كنون، دار الرشاد، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2011، ج2، ص 539، 540.

² ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، م 14، ص 95، مادة (بني).

إنّ الإسلام هو المشروع الرّبّاني لصناعة المجتمع المثالي الذي يحقّق العدل والإحسان، وينشر المحبّة السّلام فهو منظومة عالية الدّقة من القوانين التي تنظّم حياة الأفراد والمجتمعات والدّول على حدّ سواء، وهو ثقافة حياة تشمل كل مجالات الحياة؛ الأخلاقية، الاجتماعية، الإدارية، الأسرية، الاقتصادية، السياسية... والنموذج المثالي لهذه المنظومة القانونية والثّقافة الحياتية هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنّه كما قالت السيّدّة عائشة - رضي الله عنها-: "كان خلقه القرآن". فدلّ ذلك على المطابقة بين القرآن والسّنّة إجمالاً، وبذلك مدحه تعالى، فقال مادحا لسانه: ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ (النجم،3). وقال مادحا بصره: ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾ (النجم،). وقال مادحا فؤاده: ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ (النجم،). وقال مادحا هديه: ﴿ما ضل صاحبكم وما غوى﴾ (النجم،). وقال مادحا إيّاه في كل شيء: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ (القلم،4).

فهو الإنسان الكامل والنّمودج المثالي، والمثل الأعلى والقدوة العظمى، وفي ذلك يقول البوصيري:

هو الذي تمّ معناه وصورته ثم اصطفاه حبيبا بارئ النّسم¹

جسد النبي صلى الله عليه وسلم هذه الأخلاق ممارسة حقيقيّة في حياته كلها؛ عملها وقولها، حركتها وسكونها، فـ "كان أشرف الناس وأزكاهم نفساً، وأحسنهم أخلاقاً"²، وذلك حتى يبيّن للمسلمين حقيقة الإسلام؛ فهو خلق حميد وسلوك قويم، وقيمٌ علياً قبل أن يكون طقوساً تعبدية. وعلى نهجه وخطاه سار الصوفية، فركزوا على الأخلاق واعتمدها أساساً لتربية النفس وتهذيبها لكسب الفضائل والتحلّي بها، وترك الرذائل والتخلّي عنها، ويؤكد (الغزالي) على أن المنهج الذي يوصل إلى تربية الأخلاق الفاضلة هو "منهج طائفة الصوفية دون غيرهم، فهو الذي يجمع بين الإسلام وعمله، ويجمع بين الحقيقة والسلوك، ويجمع بين نتاج العقل ونور البصيرة، ويجمع بين يقين العلم وطمأنينة المعرفة"³. فتجسيد الأخلاق في الحياة اليومية حقيقة فعلية لا يتأتى إلا بعد تزكية النفس وتهذيبها، وتربيتها على الإحسان. لهذا اهتم الصوفية بمقام الإحسان لأنه مدار التربية الروحية، وذلك امتثالاً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ألا إن في الجسد مضغة إن صلحت صلح الجسد كله وإن فسدت فسد الجسد كله". فتزكية القلوب ومداواتها هي أصل الدين وبداية كل إصلاح واستقامة، واقتداء به صلى الله عليه وسلم الذي كان المعلم والمربي وكانت دار الأرقم بن أبي الأرقم أول مدرسة للتربية الروحية؛ ولتزكية القلوب وتهذيبها وما يؤكد ذلك الآيات المكية التي نزلت في هذا الصدد.

¹ البوصيري، البردة

² السهروردي، عوارف المعارف، ص 229.

³ بركة، عبد الفتاح عبد الله، في التصوف والأخلاق (دراسات ونصوص)، الكويت، دار القلم، ط1، 1403هـ-1983م، ص 321.

وعلى نهجه سار أهل الله وأولياؤه في تربية الخلق، وذلك من خلال "تلقين الشيخ مريده أو الأخ أخاه دينه شيئاً فشيئاً لإزالة حجب الحاجبة له عن مشاهدة مولاه فينا فبيئاً، بمداواة أدواء نفسه حتى يتفياًها فيئاً فيئاً على حسب تطوراته طوراً فطوراً، قال تعالى: ﴿وقد خلقكم أطواراً﴾ (نوح، 14). ولكل طور حكم، فكما أنه لم يخلق دفعة واحدة كذلك لا يتخلق بغتة"¹.

فالشيخ هو المرابي والمعلم والمؤدب، والزاوية أو التكية أو الخانقاه على اختلاف تسمياتها عبر الزمان والمكان تمثل المدرسة التي تربي التلاميذ والأتباع والمريدين وتوجههم إلى الله؛ عبادته وإرضائه على الدوام، والطريق أو الطريقة أو التصوف هو المنهج المتبع في هذه المدرسة التربوية التعليمية، يقول تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمَنْهَاجًا﴾ (المائدة، 48). فمعنى الكلام لكل قوم منكم جعلنا طريقاً إلى الحق يُؤمُّه، وسببلاً واضحاً يعمل به.

خاتمة:

في نهاية هذه الدراسة خلصنا إلى مجموعة من النتائج، أهمها:
أن الإنسان في الفكر الصوفي ثلاثي الأبعاد؛ جسد وعقل وقلب، ولا بد من الاهتمام بكل هاته الجوانب مع بعضها البعض دون إفراط أو تفريط.

يعد التصوف علماً من العلوم الحادثة في الملة من حيث التسمية فقط كغيره من العلوم الأخرى، كعلم الفقه وعلم التوحيد وغيرها، ومع ذلك فهو العلم الوحيد الذي قوبل بالرفض والإقصاء.
إن مصطلح التصوف لقب أطلق على كل من لبس الصوف، ولا يمثل المصطلح الحقيقي الذي استخدمه أرباب هذا العلم.

استخدم الصوفية مصطلح علم القلوب، علم الباطن، الحكمة، طريق الله للدلالة على العلم الذي برزوا فيه.

يركز مفهوم التصوف عند أصحابه على التربية الروحية وتزكية القلوب وتهذيبها حتى تستقيم في طريقها إلى الله تعالى، بعيداً عن كل ما قيل عنه واتهم به.

إن علم القلوب أو العلم الباطن أو مقام الإحسان يمثل مشروعاً لصناعة الإنسان الرياني، وبناء المجتمع المثالي الذي يقود الإنسانية إلى المحبة والسلام.

توصيات البحث:

- ضرورة اعتماد المصطلح الذي اعتمده الصوفية في كتبهم بدل مصطلح التصوف الذي كان سبباً في إقصاء هذا العلم ردحاً من الزمن.

¹ عبيدة بن سيدي محمد الصغير، ميزاب الرحمة الريانية في التربية بالطريقة التجانية، ص 91.

- إجراء دراسات حول مشروع التربية الروحية وصناعة الإنسان وخاصة في هذا العصر الذي اتسم بطغيان المادة.
- استثمار مخرجات المدرسة الصوفية باعتبارها مدرسة علم النفس السلوكي في مجال التربية والتعليم.